الروحانية الحديثة وخطؤها

الأستاذ الكبير عبد الواحد يحيى

من أخطر الأغلاط الغريبة الحديثة واحدة نبتت فى أمريكا منذ أقل من مائة سنة أى (سنة ١٨٤٧ م) وعرفت باسم «الروحانية الحديثة» . ويمكن تحديد معناها بأنها ثبوت إمكان الاتصال بالموتى بواسطة وسائل مادية : أما كيف بدأت أولا فانها لاحت فى بعض ظواهر طبيعية كانبعاث أصوات وتحرك أشياء فى أحد المنازل بدون ماسبب واضح لها . أما هذه الظواهر فقد لوحظت فى كل زمان ومكان فلا يمكن القول بأنها ظواهر شاذة . فماذا إذن يستولد منها الغربيون عقيدة جديدة فى تلك الحالة الخاصة بينما لم يفكر أحد فى شىء من ذلك من قبل ! الحق أنهم ثاروا على تلك المادية المنتشرة فى العالم فعملوا على إيجاد وسيلة سرية تعمل على هدمها . ولكن إذا اعتبرنا أن غايتهم من ذلك حسنة إلا أن الوسائل التي استعملوها لبلوغ غايتهم لم تكن كذلك . وحقيقة ان الباطل هو شر دائما ولذا لا يمكننا أن نوافق على مايدعيه البعض من أن الغاية تبرر الواسطة وفى الواقع إن الواسطة إذا لم تكن صالحة تماما فانها كثيرا ما تنقلب سريعا ضد الغاية المرجوة . واننا إذا تخيلنا صورة الحياة بعد الموت على مثال صورة حياة الجسم على الأرض ، وهى التى انقاد إليها أتباع العقيدة الجديدة ، فيمكننا أن نعتبر أن مايسمى « الروحانية الحديثة » ماهى فى الحقيقة إلا مادية من نوع آخر ، بل أكثر ضررا من المادية لانها تخلق الاوهام والتخيلات فى حقيقة طبيعتها حتى تتمكن من التأثير فى الذين لم يقبلوا الآراء المادية الصريحة الشائعة . أكثر من هذا أن فيها خطرا آخر ، ويكفى أن نرى كم من الاشخاص — بواسطة مايسمى الاتصال بالموتى — أصيبوا بالجنون أو الخراب ثم الانتحار ، عند ذلك يكون لنا الحق فى التصريح بأن هذا التعليم الذى يجلب مثل هذه العواقب هو لعنة على بني الانسان . وهذه العدوى المزمنة التى رسخت فى عقول الكثيرين من الاشخاص الطاهرى السريرة وذوى النوايا الطيبة ، هذا الوباء الفاتك بالعقول بعد أن مر مبكرا من أمريكا إلى أوروبا قد بدأ لسوء الحظ ينتشر فى الشرق . بل لا نغالى إذا قلنا إنه امتد إلى الشرق الاقصى حيث نلاحظ منذ سنوات قليلة انبعاث دين جديد فى الهند الصينية يسمى « كاؤداي » ويدعى

انصاره أنه لا يستمد تعاليمه عن طريق الوحى بل يستمدها مباشرة من الله بواسطة سلة متحركة .

و ينبغى أن يفهم القارىء أننا بعيدون جدا عن إنكار حقيقة أنواع الظواهر المختلفة التى يرى فيها « الروحانيون الحديثون » برهانا على وجهة نظرهم ، فان هذه الظواهر كما سبق القول كانت معروفة دائما عند القدماء ، بل كانوا أكثر علما بها ممن يعرفونها الآن . ولكننا ننكر تفسيرها الحديث الذى تفسر به هذه الحقائق بنسبتها الى فعل « الارواح المجردة » وهى التى يقصد بها الشخصيات الانسانية التى زالت من عالم الوجود الارضي. كيف يقبل التفكير السليم أن « الأرواح المجردة » يمكنها تحريك مائدة أو استيلاء قوة خفية على اليد تجعلها تكتب أو ترسم ، أو أشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ؟ مثل هذه الاثباتات لاتدل إلا على عدم العلم ـ الذي أصبح تقريبا عاما فى وقتنا هذا ـ باختلاف الظروف فى حالات الوجود المتباينة. و ينبغى أن نذكر أنه إذا أمكن للانسان أن يتصل بالارواح ـــ إنسانية أو غير إنسانية ـ فان ذلك لايكون إلا بأن يصير نفسه متيقظا فى حالة وجوده الخاصة التي تطابق الحالة نفسها والتى تكون فيها تلك (الأرواح) فعلا . ولكن هذه مسألة أخري ليس لها أية صلة بتعاليم وأفعال (الروحانية الحديثة) . وفى الحقيقة توجد عناصر كثيرة من أنواع مختلفة ربما ساعدت على إيجادها ، على حسب الحالات المختلفة ، ولكن ينبغى ان نفرق بين هذه العناصر بدقة. وسنشير بايجاز إلى أنواعها المختلفة ، حيث لا يمكننا أن نفسر كلا منها تفسيرا كاملا مفصلا لأن ذلك لايتسع البحث فيه الآن :

١ ـــ من أهم العناصر التى تحدث هذه الظواهر ، تلك التي تحدث فى معظم الحالات وكثيرا ماتكون منفردة ، وهى التى توجد فى قوى الانسان العقلية ـ هذه القوى التي يمكن أن تتسع وتكبر أكثر مما يظنه علماء النفس الحديثون أو الذين يشتغلون بدراسة الحالات الشاذة. هذه القوى كامنة فى كل انسان ، واذا نمت واتسعت بطبيعتها فان ذلك يكون فى حالات نادرة ولكن يمكن تنميتها صناعيا فى بعض الأشخاص بوضعهم فى حالات خاصة مثل تلك الحالات المعروفة تحت الاسم العام « التنويم المغناطيسى » وهى التى فيها يمكن للانسان أن يحس بأشياء بدون أن يتصل جسمه بها وكذلك يمكنه تحريكها كما يمكنه أيضا رؤية أشياء مختفاة عن حواسه العادية أو بعيدة عنه فى الزمان أو فى المكان وغير ذلك . ولا يمكن لغير الرجل المادى ـ فى أضيق حدود معنى هذه الكلمة ـ أن يقول بأن الانسان محدود بالقياس الى جسمه ولكن الروحانيين بتسميتهم هذه التي درجت فى الفلسفة الغربية

يشكون جدا فى قدرة الانسان على احتمال ماهو فوق مستوى قواه الجسمية أو تلك القوى التى تتصل وثيقا بالجسم وتظهر فى الحياة المعتادة لاى فرد، ومن جهة أخرى ينبغى أن نذكر أن تلك التي تسمى القوي الشاذة وهى التي نتكلم عنها ليس فيها شيء روحى في الحقيقة أكثر من القوى المعتادة . وان التصور الذي جعل الانسان الحى يتكون من جزئين أو عنصرين فقط ـ وهو ما انتشر فى الفلسفة الحديثة خاصة وفى العقل الغربى عامة ـ هذا التصور هو الذى سبب هذا الاضطراب ، لأنه صير الناس جاهلين بالفرق الاساسى بين النفس والروح . وإن طبيعة المقدرة التي تظهر فى الاشخاص الذين ينومون تنويما مغناطيسيا ـ وهم الذين يسمونهم « الروحانيون الحديثون » بالوسطاء ـ ليست « روحية » بالمرة بل هى « نفسية » تماما ، وهى تخص الحالات التى يمكن وصفها بأنها الطف من الحالات العادية كما انها أكثر اتساعا وأعلى منزلة أيضا في درجات الوجود ، كما يجب أن تكون الحالات الروحية . و إنماء مثل هذه القوى فى الانسان هو إنماء الاحساس بالاتساع لا الاحساس بالارتفاع .

هـذه الحالات النفسية التى تظهر إما في التنويم المغناطيسي أو فى بعض حالات من الامراض العقلية ينشأ عنها ما يسميه علماء النفس خطأ « بالشخصيات المتعددة » لأنهـا تظهر منفصلة عن الحالات العادية . وربما كان هذا خطأ فى استعمال الكلمات والا فانه يكون خطأ فاحشا لانه لا يمكن لعقل ما أن يتصور أن الانسان الحي له أكثر من شخصية واحدة . وحقيقة إن كل حالات الكائن ماهي إلا مظاهر جزئية لشخصية واحدة غير متغيرة .

وصحيح أن الانسان فى حالاته العادية لايحس بالاعمال التى يؤديها أو المعارف التى يستقيها فى الحالات الأخري ، ومن السهل جدا أن ندرك هذا لأن الحالة العادية هى أضيق الحالات مجالا كما أنها لا تعتمد إلا على الشروط الجسمية ، بينما الحالات الأخرى تكون مطلقة الحرية ، واننا لانجد غرابة فى هذا لو فكرنا فقط فى التفرقة التى توجد عادة فى كل فرد بين شعوره بحالة اليقظة وشعوره بحالة النوم .

ينبغى أن نوجه بحثنا نحو نقطة واحدة : هى إن كل مايسمى (بالظواهر) إما أن يصدر من القوى العقلية في الحالات العادية أو من قوى الحالات النفسية الأخرى . هذه الظواهر تمثل فقط الجزء الظاهري من الكائن . وواضح من الكلمات نفسها أن (الظواهر) ـ من أى نوع أو درجة ـ هى كلها من الظاهر وليست من الباطن ، أى أنها تعديلات سطحية

للكائن وليست عناصر مكونة لذاته الباطنية العميقة . والقوى التي يمكن تسميتها تماما باطنية ينبغي أن يبحث عنها في حالات تختلف تماما عن الحالات النفسية وتسمو كثيرا عن الظواهر العادية أو الشاذة .

٢ ـ إذا رجعنا الى الحالات النفسية التي تكلمنا عنها فينبغي أن نقرر أن الانسان في هذه الحالات ـ كما في الحالة العادية ـ يحاط بقوى فعالة مختلفة ألطف من تلك التي في عالم الجسم والحس ، ولكن بعضها ربما كان مشابها ـ لاذاتيا ـ لقوى مثل الكهرباء وغيرها ، ولايخفى أن هذه القوى يمكن للطبيعي العادي الاستدلال عليها بتأثيراتها المحسوسة . هذه القوى النفسية التي كان يعبر عنها (الطاو ـ صي) الصينيين بأنها (قوى سابحة) كان لها قوانين مثل أي قوانين أخرى طبيعية ، وربما كان الغرض منها علميا ، فاذا أمكن أن تجمع وتركز بشروط خاصة فانه ينبعث منها تأثيرات ربما تظهر غريبة لمن يجهلون مثل هذه الاشياء ، مثلها في ذلك مثل ظهور التأثيرات الكهربائية لمن يجهلون الطبيعيات . أضف إلى هذا أن الانسان إذا اتصل بمثل هذه القوي يمكنه ، بدون أن يشعر ، أن يلبسها لوقت ما شخصية ظاهرية بزوال شخصيته الخاصة ، ومن هذا يمكننا تفسير ظواهر كثيرة .

وهنا يمكننا أن نرى أحد الأسباب للاخطار التي يقع فيها من يمارس (الروحانية الحديثة) أو ما يماثلها : يعرض الفرد نفسه لتأثيرات ربما أثرت فيه في أحوال كثيرة فتبعث في كائنه الخاص عناصر الاضطراب وعدم الاتزان النفسي تذهب به أحيانا إلى نوع من الوحدة والعزلة ، ويمكننا أن نجد ما يماثل هذه الوحدة في بعض ما يسمى (بالشخصيات المتعددة) التي تكلمنا عنها سابقا . هذه الأخطار لايستهان بها وربما لايمكن تجنبها اذا كان الأشخاص الذين يتصلون بهذه القوى جاهلين تماما بطبيعتهم كما هي الحال مع الأكثرية العظمى لمعاصرينا وخاصة (الروحانيين الحديثين) الذين هم في الحق كالأطفال يلعبون بالنار

٣ ـ الانسان في حالته العقلية أو النفسية يجد نفسه متصلا ، كما في الحالات العادية ، بكائنات أخرى موجودة في حالات تتفق مع حاله ، وأهم ما نقصده هنا بالكائنات هم بنو البشر . وهذا هو ما يحدث لهؤلاء الذين يشتركون في (جلسات) الروحانيين الحديثين بدون رغبة منهم أو معرفة فيوصلون أفكارهم إلي الوسيط ، وليست أفكارهم المطابقة الواقع

حينئذ فحسب ، بل أيضا وغالبا أفكارهم البعيدة التي تلوح لهم كأنهم نسوها لبعد العهد بها فيعجبون جدا من اكتشافها ويمكن للاشخاص الغائبين أيضا أن يتصلوا بأنفسهم مهما كانوا بعيدين إذا كانوا في مثل هذه الحال متجردين من كل القيود الجثمانية . ويمكن إجراء هذه التجربة بشعور من الأشخاص أو بدون إحساسهم بها : وتحدث الأولى في الحالات النادرة للأشخاص الذين لهم معارف خاصة والذين يعملون هذا لغرض محدود كما حدث عند ابتداء العلم (بالروحانية الحديثة) وتحدث الثانية في الحالة العامة وهي اتصال أي فرد وخاصة أثناء نومه . ويجدر بنا أن نضيف الى ماذكر أنه يوجد بعض المظاهر في الحيوانات : لأن لهذه أيضا حالات لطيفة في كائنها الخاص

٤ ـ وفي بعض الحالات تحدث الظواهر ، طبيعية كانت أو مفتعلة ، بعناصر تنبعث حقيقة من الموتى ولكن ليس لها اتصال فعلي بشخصياتهم الحقيقية : وهذه العناصر ماهي الا بقايا نفسية مشابهة لبقايا الجسم التي يتركها الميت بعده بتحلله . لأنه يوجد في الطبقة النفسية عناصر تلازم الجزء الخالد من الكائن ، وهذه العناصر أقرب الى الحالة الجسمية : ولذا يمكنها أن تولد تأثيرات حسية . وهذه البقايا النفسية تمثل حقيقة حالات خاصة من (القوي السابحة) التي سبق ذكرها قبلا . واذا ذكرناها على حدة فان ذلك لان مظاهرها جميعها يمكن اعتبارها كمظاهر حسية للموتى ، ولكن في معنى يختلف تماما عما يقصده (الروحانيون الحديثون) . مثل هذه العناصر يمكن أن تأخذ مظهرا مؤقتا للحياة ثم تعطي حينئذ إجابات آلية تعكس بعضا من أفكار الفرد التي سبق أن كانت تختص به . وهذا الطيف من الشخصية ـ إذا أمكن تسميته كذلك ـ هو ما كان يسميه اليهود القدماء (اوب) كما يرى في بعض الكتب المقدسة . وقد أعطى إجابات في (الاستحضارات) التي استعملت بين معظم الناس ، ولو أن الدين يحرمها بصفة عامة .

٥ ـ وأخيرا ، ليكون الموضوع تاما ، ينبغي أن نذكر إمكان تداخل تلك الكائنات التي ليس لها حياة جسمية . هذه الكائنات ـ التي تعتبر غير إنسانية ـ ليس لها مطلقا طبيعة روحية خالصة . ولكنها بالعكس تقرب جدا من العالم الحسي ، ولهذا يمكنها أحيانا أن تحدث تأثيرات فيه ، ونريد هنا أن نشير بصفة خاصة إلى فعل الجن ولكن ليس هنا مجال الافاضة في هذا الموضوع

وبما أنه لا يوجد شيء روحي في كل هذه الاشياء أكثر من تلك التي لها اتصال بالحياة الأرضية فلا ضرورة للقول بأنه لا يمكن المقارنة بينها وبين الأشياء الأخرى التي

تختلف فى طبقتها كوحى الأنبياء عليهم السلام أو التى في طبقة أقل ارتفاعا كالقدرة الخاصة للأولياء رضى الله عنهم، وهى التى تنبعث فى مبدئها من العالم الروحى، و ينبغى أن نقرر أن هذه المبادىء تختلف فى حقيقتها بينما تتفق في المظاهر الخارجية . ولكن هذه أيضا مسألة أخري . تلك مسألة (المؤثرات الروحية) وليس لها صلة بموضوعنا الحالي أمام حيث الظواهر النفسية فاننا سنضيف هذا : بعض الغربيين — وليس هؤلاء الذين يقبلون وجهة نظر حسب الروحانية الحديثة بل والذين يسمونها أغراضا علمية — يحاولون بكل جهدهم أن يكتشفوا أشياء كانت معروفة تمام المعرفة في الأزمنة السحيقة عند الامم الشرقية ويلاحظون بعض الحقائق ولكن يعجزون عن تفسيرها بينما وجد — كما سبق أن أوضحنا باختصار — كل ما نحتاج إليه لتفسير هذه الحقائق نفسها بل وحقائق أخري كثيرة لم يكن لديهم أقل فكرة عنها

والنتيجة ان كل من يود معرفة حقيقة مثل هذه الموضوعات لا يمكنه أن يجد ضالته فى البحوث الغربية الحديثة بل عليه أن يرجع الي المعارف الشرقية القديمة

عبد الواحد يحيى

رابعة الشامية وابن أبى الحوارى

قال أحمد بن أبى الحوارى : كانت لرابعة الشامية أحوال شتى : فمرة يغلب عليها الحب ومرة يغلب عليها الانس ومرة يغلب عليها الخوف ، فسمعتها فى حال الحب تقول :

حبيب ليس يعدله حبيب ... وما لسواه فى قلبي نصيب
حبيب غاب عن نظري وشخصى ... ولكن عن فؤادى ما يغيب

وسمعتها فى حالة الانس تقول :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسي

وسمعتها فى حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مبلغى ... أللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى فيك أين مخافتى

فقلت لها مرة وقد أتت بليل : ما رأينا من يقوم الليل كله غيرك . قالت سبحان الله مثلك يتكلم بهذا ؟ إنما أقوم إذا نوديت ، فجلست على المائدة فى وقت قيامها فجعلت تذكرنى ، فقلت لها دعينا نهنأ بطعامنا فقالت : ليس أنا وأنت ممن ينغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة.